

## الحرب المقدسة

كان مذهب عبد الرحمن الناصر في نظام الحكم أن يحتفظ لنفسه بالسلطة كاملة، وأن يختار لتصرف أمور الدولة رجالاً من صنائعه، الذين رفعهم بعد ضعة، وأعزهم بعد مهانة<sup>(١)</sup>، وحرص قبل كل شيء على أن يجرد زعماء العرب الذين لعبوا بالأمراء قبله من كل قوة، فكان رؤساء دولته من المحدثين في النعمة الذين لم يرفعهم نسب ولم تنهض بهم في المجد سابقة، فتوثقت عراهم بسيدهم كما يتشبث الضعيف بالقوى. إذ لولاه لداستهم الأسر العربية بالأقدام، ثم إنه حاط ملكه بجيش عظيم جرار، انتقى قواده من خيار رجال حرسه من الصقالبة، وأضاف إليهم رجالاً من الفرنجة، وغاليسية، ولومبارديا، وغير هؤلاء من أجناس شتى، وكان تجار الإغريق والبندقية يجلبون هؤلاء الأرقاء ويبيعونهم صفاراً للخليفة، ليهدبهم وينشئهم في الإسلام، وكثير منهم من أصبح كامل الثقافة شديد الإخلاص لمولاه، وهم يشبهون من نواح كثيرة ممالك خلفاء صلاح الدين بمصر، الذين اختاروهم لحراستهم، والذين بلغوا في

---

(١) يقول «صاحب أخبار مجموعة»: وأغاظ الأحرار بإقامة الأندال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره، وألجا أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه.

النهاية ذروة المجد، فكانوا سلاطين لمصر والشام، نعم يشبهونهم فيما كان لهم من عبيد ينصرونهم، وفي أن الخليفة أقطعهم ضياعاً يقوم على زراعتها الخول والعبيد، وفي أنهم كانوا دائماً يستجيبون لدعوة سيدهم إذا دعاهم للحرب، فيقبلون مسرعين على رأس أتباعهم وعبيدهم، ثم يشبهونهم في أنهم وصلوا بعد حين من الدهر إلى قمة السيطرة والنفوذ، فاغتنموا فرصة ذبول الدولة وتدهورها بعد موت عبد الرحمن الناصر وخليفته، وأسسوا لأنفسهم دولة، فكان لهم بذلك سهم بين السهام، ويد بين الأيدي التي قضت على حكم الإسلام بالأندلس.

استطاع الأمير مستعيناً بالصقالبة أن يطهر البلاد من عصابات السوء، وأن يسلم منها روح التمرد، ثم أن يشعل حرباً ضروساً على نصارى الشمال ويعود مظفراً منصوراً. فقد كانت مملكة الإسلام في أيامه مهددة بخطر أشد من خطر الفوضى والثورات، ذلك أنها كانت محصورة بين مملكتين متحديتين شديديتى المراس، تتطلب كلتاها شدة اليقظة والحذر: ففي الجنوب ربضت مملكة الفاطميين في شمال إفريقية متنمرة متوثبة، وكان من الطبيعي أن يذكر حكام الساحل البربرى أن العرب قبلهم جعلوا من إفريقية معبراً إلى إسبانيا، كما أن السياسة المتوارثة بين حكام البربر كانت توسوس إليهم دائماً أن يضموا - إذا استطاعوا - ولايات إسبانيا المشرقة إلى إفريقية.

ورأى الخليفة أنه لا يستطيع التخلص من الفاطميين أو تجنب شرورهم إلا ببت الفتنة وإشعال نار الخلاف بين قبائل البربر، فنجح في ذلك أيما نجاح، وأخضع بدهائه قسماً كبيراً من ساحل البربر، وتملك قلعة سبته الحصينة، ثم إنه خصص مقداراً كبيراً من دخل الدولة ببناء أسطول عظيم، نازع به الفاطميين سلطتهم في بحر الروم.

أما في الناحية المقابلة نحو الشمال، فكان على المسلمين أن يقابلوا عدواً هو أشد من الفاطميين كيداً، وأبعد خطراً، فقد نبتت نصارى أستورياس وتأثلت من حفنة من الرجال زاد عددهم في هذه الأيام واشتد ساعدهم، فاعتزوا بالكثرة والقوة، ونما في نفوسهم حافز قوى إلى استرجاع وطنهم المسلوب.

وقصة ذلك: أنهم حينما اصطدموا بالمسلمين عند الفتح، فقدوا صوابهم، وطارت نفوسهم شعاعاً، وتمزقوا شذر مذر مذعورين من هؤلاء الشياطين، فالتجئوا إلى جبال أستورياس وأقاموا بها، فكان لهم من قلة عددهم ووعورة الجبال التي نزلوها شفيح زاد المسلمين عنهم. ولم يجتمع حول زعيمهم «بلاى» فى كهف «دونجا» إلا ثلاثون رجلاً وعشر نساء، فلم ير العرب أن مثل هذه الطغمة القليلة من الفارين تستحق المطاردة والاقتران، فتركوهم وشأنهم يقيمون فى مغاور هذا الكهف الذى لا ينال إلا من شعب ضيق لا يرقى إليه إلا بسبعين درجة، ودارت الأيام وتعاقبت الأعوام،

وهم يتكاثرون ويتناسلون، حتى استطاعوا بعد حين أن يؤلفوا في معقلهم الحصين جيشاً تاماً.

ووصف ابن حيان المؤرخ نشأة هذه الدولة المسيحية في حزن وأسى فقال:

وفي ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي<sup>(١)</sup>، قام بجليقية عالج خبيث يدعى: بلاى فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، ودافع عن أرضه. ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقى من أرضهم؛ والحماية عن حريمهم، وكانوا لا يطمعون في ذلك، وقيل: إنه لم يبق بأرض جليقية قرية لم تفتح إلا الصخرة التي لاذ بها هذا العالج، ومات أصحابه جوعاً إلى أن بقى في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة، وما لهم عيش إلا من عسل النحل في جباح (خلايا) معهم في خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين إلى أن أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا: ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به» ويقول مؤرخ آخر: كم تمنينا على الله لو أن المسلمين أطفئوا، دفعة واحدة، شرارة هذه الجذوة التي قدر لها أن تلتهم دولة الإسلام بالأندلس!

(١) ولى الأندلس في صفر سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م واستشهد في شعبان سنة ١٠٧ هـ

تقوت هذه العصابة الفارة شيئاً فشيئاً، وزاد في بأسها وفود  
النصارى إليها من أقطار الشمال، وحينما شعرت بالقوة، واطمأنت  
إلى الثقة بنفسها، خرج رجالها من معقلهم وأخذوا يناوشون البربر  
النازلين بحدود الأندلس، حتى اضطر العرب فى النهاية إلى  
أن يزحفوا على كهف هؤلاء المغيرين البسلاء ليستأصلوهم، ولكنهم  
لم يظفروا بطائل، فقد هزمهم المسيحيون فى هذه المحاولة وغنموا  
منهم مغانم كثيرة، وفى سنة ٧٥١ م / ١٣٤ هـ تزوج ألفونسو  
(الأذفونش) صاحب كانتابريه (التي لم ينفذ إليها العرب) بابنة  
بلاى، فوحد هذا الزواج كلمة المسيحية، وهب ألفونسو فآثار  
الولايات الشمالية على العرب، وشن بجنود من أهل غاليسية على  
المسلمين حروباً متعاقبة دفعتهم إلى التقهقر نحو الجنوب، واسترد  
من أيديهم مدن براجا، وبورتو (مدينة البرتقال)، واستروجة،  
وليون، وطمنكة، وزمورة، وليدسمة، وسلادانة، وشقوبية،  
وآبله، وأوسما، وميراندة. وامتد الحد المسيحى إلى الجبال الكبرى  
وأصبحت حصون الحد الإسلامى مدن: قلمرية، وقورية، وتالافيرة،  
وطليطلة، ووادى الحجارة، وتُدلة (تيوديلة)، وبنبلونة.

والحقيقة أن ألفونسو استرد ولايات قشتالة، وليون،  
وأستورياس، وغاليسية، غير أن هذه العصابة بعد أن ملكت ما  
ملك، خلت إلى أنفسها فرأت أيديها صفراً من المال، ورأت أنه  
لم يكن لها من العبيد والخول من يقومون ببناء القلاع واستنبت

الأرض فى تلك البقاع الواسعة التى استرجعتها، فخطر لها أن تتركها للعرب على أن تكون حدوداً بينهما غير ثابتة، وارتدت إلى المقاطعات حول خليج غسقونية حتى يحين الوقت الذى تسوّغ لها فيه كثرة العدد والمال احتلال بقاع أوسع.

وجاء القرن التاسع وأحس المسيحيون بما يحفزهم إلى استعادة البقاع التى تغلبوا عليها من قبل، فانتشروا بمقاطعة ليون، وابتنوا لصد أعدائهم قلاع: زمورة، وسان استيبان، وأوسما، وسيمينقاس، ثم تقدموا فضيعوا فسحة الحدود بينهم وبين العرب، حتى لقد كانت تتلاصق جيوش الفريقيين فى بعض المواطن. وحاول العرب فى بداية القرن العاشر أشد محاولة أن يستردوا أراضيهم بما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، ولكن المسيحيين هزموهم شر هزيمة، وتواثبوا على حدودهم بعد أن استعانوا برجال من طليطلة، وبعد أن شد أزرهم سانشو (شانجة) ملك نافار (بنارة)، الذى أصبح موثلاً المسيحية فى الشمال.

وكانت حروب المسيحيين نقمة وسوط عذاب على أعدائهم، فقد كانوا جفاة أميين، وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميتهم. وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين إلا التعصب والقسوة، فإنهم لم يؤمنوا مستجيراً، ولم يتركوا فراً، ولم يبقوا على جريح. وهذا يذكرنا، والحزن ملء صدورنا، بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق، فكثيراً ما عفوا عن أعدائهم نبلاء متكرمين، فى

حين نرى اليوم رجال ليون وقشتالة العتاة يذبحون جميع رجال الحاميات، ويستأصلون مدناً مليئة بالقطن، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم.

لم تمر سنتان من حكم عبد الرحمن الناصر حتى زحف أردون الثالث صاحب ليون بجيوشه على العرب، وأثار حرباً شعواء بلغ بها أسوار ماردة، واشتد هلع أهل بطليوس لمقدمه، فأسرعوا إلى مصالحته بالمال لاتقاء شره. واشتد الخطر على المسلمين لقرب هاتين المدينتين من قرطبة، ولم يكن يحول بين جيوش أردون وبينها إلا اشارات مورينا الشاهقة، فكان الموقف شديد الحرج على المسلمين، ولو أن الأمير كان جباناً لتلمس لنفسه الأعدار في نكوصه عن القتال، لأن ماردة لم تكن تعترف بعد بسultanه، فأى شأن له إذا وثب النصارى على ولايات خارجة عليه؟ ولكن شيئاً من هذا لم يكن من طبع عبد الرحمن ولا من خلقه، فوثب في الحال وجمع جموعه وأرسل بعثاً إلى الشمال، فشن غارات قاسية على مملكة المسيحيين، وأرسل في السنة التالية سنة ٩١٧ م / ٣٠٥ هـ حملة أخرى لم يكن لها من التوفيق ما كان للأولى، فهزمها أردون أمام أسوار سان استيبان، واستخلص من المسلمين كثيراً من الغنائم.

وحينما رأى القائد العربي المغوار<sup>(١)</sup> طلائع الهزيمة، قذف بنفسه بين الأعداء ومات وسيفه في يده، وكان من جبن ملك ليون

(١) هو ابن أبي عبدة.

ووحشيته أن أمر بحز رأس هذا الجندي الشجاع وتسميره بباب القلعة إلى جانب رأس خنزير، ثم أطفى الانتصار جيوش ليون ونافار، فعاتوا في السنة التالية فيما حول طليطلة، وتغلب عليهم جنود قرطبة في أثناء ذلك في موقعتين، وفي هذا الحين عزم عبد الرحمن على أن يستكمل عدته، لأنه رأى أن التغلب على المسيحيين يتطلب جهداً أعظم وأمضى، فقاد في سنة ٩٢٠ م / ٣٠٨ هـ الجيوش بنفسه، ومضى مسرعاً متسلحاً بمهارته وحسن رأيه، فدهم أوسما وسوى قلعتها بالأرض، ودمر سان استيبان بعد أن فرت حاميتها، ثم اتجه إلى نافار ونازل سانشو (شانجة) ففر أمامه من الميدان مرتين، ثم جاءت النجدة من ليون إلى جيوش نافار، وكان المسيحيون في موقع طبيعي يمكنهم من العرب، ولكن الأمير نازلهم في وادي القصب واستأصل جموعهم، وأثارت منعة حدود المسيحيين غضب المسلمين فوضعوا السيف والنار في حامية ميوز، ومن الحق أن نقرر آسفين أن العرب في بعض هذه الوقائع حاكوا أعداءهم في أعمال القسوة والعنف، وبخاصة حينما كانت تضم جيوشهم عدداً من الإفريقيين الذين اشتهروا بالوحشية والشراسة، ولكن عود المسيحيين كان صلباً لا يلين، فلم تستطع الهزائم أن تفل من عزمهم أو تكسر من شوكتهم، ولن يفوق شيء عزم المسيحيين المغلوبين، فقد كانوا على توحشهم يمتازون بشجاعة الرجال، فكم حطمت جيوشهم مرة بعد مرة وهم ينهضون في إثر كل هزيمة بقلب ثابت

جديد. لذلك لم يمض على كارتتهم فى موقعة وادى القصب إلا سنة واحدة حتى وثب أردون الذى كان يمثل روح المقاومة المسيحية، وشن بجيوشه حرباً ضروساً على الحدود.

وفى سنة ٩٢٣ م / ٣١١ هـ زحف سانشو ملك نافار واستحوذ على بعض القلاع القوية، فأثار ذلك همة الأمير، فقاد جيوشه مرة أخرى نحو الشمال وقد تملكه فى هذه المرة عزم عابس، وأدركه غضب الأسود ديس عرينها، فانتهب وأحرق كل ما مر به من المدن والقرى، وملاً الرعب منه النفوس فأخذ الناس يجلون عن المدن كلما شعروا باقترابه، وفتحت له قسبة بنبلونة أبوابها بعد أن فر أهلها، ومزق جيش سانشو فتراجع منهزماً مدحوراً، وقام المسلمون إلى كنييسة القسبة فهدموها ودمروا كثيراً من دورها، وأصبحت نافار بمن فيها وما فيها تحت قدمى الأمير.

وفى هذا الوقت مات أردون ملك ليون، وثار الفتنة بين أبنائه واشتعلت بينهم حرب أهلية أعطت الأمير متنفساً وفسحة للنظر فى شئون أخرى.

ولما عاد عبد الرحمن الناصر من هذه النصرة اتخذ لنفسه لقباً جديداً فقد كان حكام الأندلس قبله يلقبون بالأمرء، ولم يدع أحد من حكام بنى أمية حقاً فى الخلافة - على الرغم من إنكارهم خلافة العباسيين الذين ثلوا عرشهم بالشرق - لأنهم رأوا أن لقب الخليفة لا يستحقه إلا من يحكم الحرمين، فقتنوا على كره منهم

بأن يتركوا للعباسيين لقبهم غير منازعين فيه، غير أنه حينما شاع فى الأندلس أن الخلفاء العباسيين أصبحوا وليس لهم شىء من النفوذ فى خارج حدود بغداد، وأنهم يعيشون بها عيشة السجناء لتشتت أجزاء المملكة، ونشوء الأوطان المستقلة<sup>(١)</sup> أسرع عبد الرحمن فدعا بنفسه خليفة على المسلمين وسمى نفسه الناصر لدين الله<sup>(٢)</sup>.

انتحل الخليفة هذا اللقب قبل موته بثلاثين سنة ملئت بالحكمة والعدالة والحزم، وصحبت بحروب مستمرة كانت تشن كل عام على المسيحيين، فرفعت من قدره وجعلته جديراً بلقبه الناصر لدين الله. ولكن الحروب الأهلية التى حدثت زمناً من قوة أهل ليون انطفأت الآن وسكن غبارها، وظهر من خلالها ملك مسيحي عسى بالمنصب، جدير بأن يكون خليفة لأردون العظيم؛ فقد ولى الملك راميرو الثانى (ردمير) فى سنة ٩٣١ م / ٣١٩ هـ وبرزت فيه صفات الفروسية بعزمه الصارم على مقاومة جيوش الخليفة، وبعد قليل عقدت فى الشمال بين المسيحيين وأمير سرقسطة<sup>(٣)</sup> معاهدة شديدة الخطر

---

(١) يضاف إلى ذلك ما كان من قتل المظفر لمولاه المقتدر سنة ٣١٧ هـ / ٩٣٩ م.  
(٢) وأرسل منشوراً بالخلافة إلى الولاة، فيه: وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إن كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه.

(٣) هو محمد بن هاشم التجيبى، خلع الطاعة سنة ٩٣٤ م / ٣٢٣ هـ وانضم إلى راميرو وإلى ملك نافار وأثار جميع أهل الثغر على الخليفة، فزحف الخليفة عليه وأخذ قلعة أيوب وحاصر سرقسطة إلى أن لاذ محمد بن هاشم بطلب العفو فعفا عنه.

سيئة المغبة، فأسرع عبد الرحمن إلى تمزيق هذه المعاهدة وإخضاع سرقطبة في سنة ٩٣٧ م / ٣٢٧ هـ ثم زحف على نافار، ونشر الرعب والفرع أينما سار، حتى إن الملكة الوصية (طوطة) أسرعته إليه لتقدم خضوع المحكوم للحاكم، ولكن راميرو لم يشترك في شيء من هذا الاستسلام، فلم شتات جيشه وتغلب على المسلمين وقهرهم في موقعة الخندق، وكانت كارثة على المسلمين، فسقط منهم خمسون ألفاً في الميدان، ونجا الخليفة بنفسه وما كاد ينجو، وفر بأقل من خمسين فارساً، وبقيت هذه السنة المشؤمة عهداً طويلاً بالأندلس تسمى بسنة الخندق<sup>(١)</sup>.

ولو أن المسيحيين سايروا تغلبهم وجاروا تقدمهم، لجاز أن يكتب اليوم لإسبانيا تاريخ آخر، ولكنهم كشأنهم شغلتهم العداوة والبغضاء، ووقع النزاع بين أمرائهم، فحمى ذلك الخليفة من شرهم، واقتنص فرصة تدابروهم للانتعاش من كارثته ولم شعث ما تفرق من جيشه، وأخذ الأهبة لهجوم جديد؛ فقد كانت الفتنة متأججة في قشتالة لمقاومة سيطرة أهل ليون، وكان حاكم قشتالة في هذا الحين

---

(١) قال المسعودي: كان عبد الرحمن في أكثر من مائة ألف من الجنود. ويعمل صاحب أخبار مجموعة هذه الهزيمة بأن وجوه رجال الجيش تواطئوا على الانهزام كراهة في قائدهم غير العربي نجدة الصقلي، وقال إن عبد الرحمن لم يحضر موقعة بعد هذه.

فرناندو غونزاليز المشهور<sup>(١)</sup> الذي غنى بمدحه كثير من الشعراء، فإنه كان بطلا من أبطال إسبانيا، تزوج ببطلة خلصته مرتين من السجن بعد أن ألقاه فيه بعض الحسدة من جيرانه أصحاب نافار وليون، وكانت حيلتها في خلاصه في المرة الثانية أن ارتدت ثياب زوجها وعرضت نفسها للوقوع في أيدي السجنين، أما خلاصه في المرة الأولى فكان قبل زواجها به حينما كان في طريقه ليخطبها من أبيها غرسية ملك نافار الذي قبض عليه أول ما رآه وألقاه في السجن.

وتقص علينا أنشودة إسبانية خبر خلاصه من محبسه فتقول:

«لقد حملوا بعيداً كونت قشتالة العظيم إلى نافار، ثم قيدوا رجله إلى يديه قيلاً مؤلماً، وطار بهم الفرح، وأولموا الولايم لاقتناصه حقاً إن سجن الملك غرسية يضم أشجع بطل بإسبانيا».

ثم يستمر الشاعر فيقص علينا أن فارساً نورماندياً كان ماراً بنافار:

«ثم جاء وهو يرجو أن يقارع العرب بسيفه في سبيل نصره المسيح».

ثم يقول الشاعر: إن هذا الفارس أخبر بنت غرسية بأسر غونزاليز وعدد لها ما في أسره من الضرر الذي يلحق بالمسيحيين بإسبانيا:

---

(١) يسميه صاحب نوح الطيب: فرلند قومس قشتيلة.

«إن أسره بهجة ومسرة لقلوب العرب، ولكنه لنا حزن أليم...»  
«لقد فقدت فيه إسبانيا حارسًا، كما فقدت فيه قشتالة زعيما».  
«إن جيوش العرب تتدفق تدفق السيول فى النهر».  
«لعنة الله على الأغلال المسيحية التى تغل يدي غونزاليز».  
ثم أخذ الفارس النورماندى يرجو الأميرة فى تخليص السجين:  
«لم تجب السيدة إلا قليلاً غير أنها فى حنادس الليل».  
«وقد نام كل الخدم نهضت وانسابت من القصر».  
«ثم أغرت حارس السجن بحليها وذهبها».  
«فباع لها ذلك الحارس الفسل سجينه».

وهكذا أخرجت الأميرة الكونت من سجنه وفرا معاً إلى قشتالة  
... وتعد هذه القصة فى هذا الوقت الذى نؤرخ حوادته قديمة، لأن  
غونزاليز كان قد تزوج بها منذ سنين، وصمم على أن تكون قشتالة  
مستقلة لا سيطرة عليها لليون.

وفى هذا الحين قبض عليه راميرو ولم ينج من سجنه إلا بعد أن  
تبين لراميرو أن القشتاليين لا يقبلون سواه حاكمًا، وأنهم يؤثرون  
الخشوع لتمثال زعيمهم على أن يدينوا بالطاعة إلى ملك ليون، لذلك  
أطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق أن يبقى خاضعًا لمملكة ليون، وأن  
يزوج ابنته من أردون أحد أبناء راميرو، وقد فترت همة فرناندو  
بعد هذا الإذلال عن أن يقابل العرب فى صفوف ليون، وعزم على  
أن يترك الليونيين لينالوا نصيبهم من الإذلال والمهانة، غير أن ذلك

لم يكن في عهد راميرو الذي فاز بانتصار على العرب في سنة ٩٥٠ م / ٣٣٩ هـ بالقرب من طلبيرة، ومات في السنة التي تليها شامخ العز وافر المجد.

وبعد موته اتخذ غونزاليز لنفسه صناعة «عمل الملوك» فأخذ على عاتقه حماية سانشو (شانجة)<sup>(١)</sup> من أخيه أردون الثالث، وحينما خلف سانشو أخاه في سنة ٩٥٧ م / ٣٤٦ هـ انقلب عليه غونزاليز وطرده من ليون، ووضع على العرش مكانه أردون الرابع، وكان كسيحاً ينبزه الناس بالأثيم، فالتجأ سانشو إلى جدته «طوطة» ملكة نافار، ولم يلبثا إلا قليلا حتى استنجدا بخليفة قرطبة ليأخذ بناصرهما في هذه الشدة<sup>(٢)</sup> وكان سانشو عظيم الضخامة والسمن، لا يكاد يستطيع المشى خطوات إلا مستنذاً إلى شخصين، فعزم على أن يستشير الأطباء البارزين بقرطبة الذين طارت شهرتهم في جميع الأقطار، وبعثت الملكة «طوطة» رسلاً إلى عبد الرحمن في هذا

---

(١) يسميه صاحب نوح الطيب «غرسية بن شانجة» وهو حفيد طوطة، أما ابنها فاسمه سانشو.

(٢) في نوح الطيب: وكان غرسية بن شانجة استولى على جليقية بعد أبيه شانجة فرويله ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشيلة فردلند ومال إلى أردون ابن ردمير، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكنس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة وإعادة حافدها غرسية على ملكه ونصره من عدوه، وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم.

الشأن، فعزم على أن يرسل حسداى وهو طبيب يهودى بارع<sup>(١)</sup>، ولكنه اشترط لذلك شروطاً منها: تسليم عدد من القلاع، وحضور سانشو والملكة طوطة إلى قرطبة.

وقد صعب على الملكة أول الأمر أن تسافر إلى حاضرة المسلمين، لأن وجودها سيكون مظهرًا من مظاهر قوة الخليفة وعظم سلطانه، ولكنها بعد كل هذا سافرت مع ابنها ملك نافار، وحفيدها المنفى ملك ليون. فاستقبلهم عبد الرحمن باحتفال عظيم لما طبع عليه من الكرم والأدب الجم، ولم يتخلص سانشو سريعًا من سمنه فحسب، بل عاد إلى الشمال مؤيدًا بجيوش من الخليفة استرد بها فى النهاية عرش ليون سنة ٩٤٠ م / ٣٤٩ هـ.

وفى السنة التالية مات الخليفة العظيم عن سبعين عامًا، بعد أن حكم نحو خمسين سنة أتم بها من وجوه الإصلاح وجلائل الأعمال فى الدولة ما يعجز الخيال عن تصوره، فإنه حين تولى الملك شابًا فى الحادية والعشرين كانت المملكة فريسة لزعماء العصابات والمفسدين فى الأرض، فاستقلت الولايات واختارت حكامها، وتحدت الأحزاب سلطة الأمراء وفرقت الدولة فرقًا، وعاثت الفوضى وعم النهب البلاد.

---

(١) ابن إسحاق من أبحار اليهود متقدم فى علم شريعتهم متمكن فى صناعة الطب، اتصل بالحكم بن عبد الرحمن ونال عنده الحظوة فساعده على جلب ما شاء من تأليف اليهود بالشرق.

ففى الجنوب كانت الدولة الفاطمية بإفريقية تهدد بابتلاع إسبانيا وضمها إلى ملكها، وفى الشمال أخذ أمراء النصارى أهبتهم للزحف على مملكة أجدادهم وطرد العرب من البلاد. فبين هذه الفوضى الجائحة، ومظاهر هذا الدمار الشامل، ظهر عبد الرحمن فبدل بكل هذا الضعف قوة، وبكل هذا الفساد نظاماً وفوزاً مبيناً، وقبل أن يمر النصف الأول من سنى حكمه أعاد السلم إلى نصابه، وثبت دعائم حكومة عادلة فى طول المملكة الإسلامية وعرضها، وقضى على سلطة الأحزاب، ونشر نفوذه مهيباً مستبداً بين جميع طبقات رعيته.

وفى النصف الثانى من حكمه حاط مملكته بالقوة والمهابة، فأرهب أعداءه فى الخارج وأزاح الإفريقيين العتاة عنه بعيداً، وأنشأ حامية بسبته تقف فى وجوههم، وقاسمهم السيطرة على البحر مقاسمة النظير للنظير، وفى الشمال عصف بالقوة النامية لنصارى ليون وقشتالة ونافار، وكانت له اليد العليا عليهم، حتى إنهم كثيراً ما قدموا عليه لحل مشكلاتهم واسترداد حقوقهم<sup>(١)</sup>.

نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها، ولم يكتف بإنقاذها من الدمار، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب،

---

(١) يقول ابن حيان، إن ملك الناصر كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبقى أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية.

ولم تكن قرطبة فى عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه فى عهد الناصر، ولم تكن الأندلس قبل أيامه فى تلك الحال من الخصب والإمراع والإنتاج وتوالى الخيرات التى نماها ووصل بها إلى الكمال كد أهلها ومهارتهم فى الصناعة، ولم يكن الحكم الأندلسى فى يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى، ولم تكن قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت فى أيام عبد الرحمن، فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد. وكانت قوته وحكمته وثروته مملكته مضرب المثل فى أوروبا وإفريقية، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا، وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلاً واحداً عانده كل شىء فقهره، ووقف فى طريقه كل شىء فحطمه، بعث الأندلس من حضيض البؤس إلى قمة القوة والازدهار، ولم تصل البلاد إلى كل هذا إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصروصدق عزيمة.

ويلون مؤرخو العرب صورة هذا الرجل الهمام بألوان لا تكاد تتفق مع ما كان له من سياسة عنيفة مسيطرة، على أنهم كانوا أمناء فى وصفه «بأنه كان أرحم من حكم مملكة فى الأرض، وأكثر الملوك علماً، وبأن أحاديث حلمه وكرمه وعدله سارت فى الناس مثلاً شروداً، وبأنه لم يفقه أحد ممن سبقوه فى الشجاعة والغيرة على الدين، وبأنه كان محباً للعلم مكرماً لأهله معاشراً لهم».

ويتناقل الناس قصصاً كثيرة في صرامته في الحق وبعده عن  
 المجاملة فيه، ويحدثنا ابن خلدون عن هذا الخليفة العظيم فيقول:  
 «وجد بخط الناصر رحمه الله: أن أيام السرور التي صفت له دون  
 تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من  
 شهر كذا من سنة كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً.  
 فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها، وبخلها بكمال  
 الأحوال لأولياتها، هذا الخليفة الناصر حلف السعود، المضروب  
 به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة  
 أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم يصف له إلا أربعة عشر يوماً؛  
 فسبحان ذي العزة القائمة، والمملكة الدائمة، لا إله إلا هو...»

